

الملوك عند السهروردي بين الرؤية والهدف العمل والعجب" نموذجاً

محمود نون

يعد السهروردي فيلسوف الإشراق المؤسس لهذه المدرسة في الحياة العقلية عند المسلمين. وحكمة الإشراق ليست سوى التجلي، وهي مذهب للفكر وطريقة للسلوك، ومذهب وسط بين التصوف وأذواقه والفلسفة ونظرياتها.

يركّز البحث التالي على موضوع "العمل والعجب" في فلسفة الإشراق طبقاً لما جاء في مصنفه "رسالة الأسئلة والأجوبة" نظراً لأهمية هذا الموضوع وتطوره في تربية النفس وتخلصها من الشوائب المظلمة، على طريقة الإشراقيين من جهة، وما يتطلبه من سلوك، وما يؤدي إليه من نتائج في إطار السمو الإنساني، من جهة ثانية.

يوم جاء "الحسين بن منصور" ^(١) إلى "الجنيد" طالباً المساعدة في الكشف عن حقيقة ما تربط بين الله وعباده، حذر أستاده من دفع رأسه ثمناً لذلك، تماماً كما حذر من قبل "الستري"، و "ابن عثمان المكي" فيما أيده بعض أصحابه: "الجريري"، و "الشبلبي"، و "ابن عطاء"، من غير أن يوافقوه على التصريح بذلك أمام العامة، مخافة أن تقع الكارثة على الجميع.

لذا، حين حوكم بتهمة الكفر، والخروج على الشريعة، وحمل به "حامد بن العباس" ^(٢)، إلى الصليب، مر "الشبلبي" من أمامه مخاطباً، معاذًا بالآية الكريمة: «أولم ننهك عن العالمين» ^{١٦}

هذه المخاطبة - المعاذبة، تختصر موقفاً متكاملاً للمتصرف من التصرف بالحقيقة التي يكافف الله بها خاصته وأولياءه، فلم يجيزوا إيصالها إلى العامة، ^(٣) لأن عقول العامة تبقى قاصرة عن استيعاب الحقائق، فتبهر بقوة النور والمعرفة، وترتد على الخاصة متهمة إياهم بالكفر والزندقة، تماماً كما حصل للحلاج، والسهوروري، والسجستانى، وغيرهم.

والتاريخ العربي - الإسلامي حافل بالشخصيات الفكرية التي ارتدت عليها الحكم وال العامة، بدءاً من أبي ذر الغفارى إلى آخر مفكر في عصرنا الحاضر. لكن هذا لا يعني أن الثقافة العربية والإسلامية لم تشهد نمواً من فجر الإسلام حتى القرن الخامس للهجرة حيث توقفت عن ذلك "... وقد يكون الحكم استمراوا تبرير سلطانهم فقووا العناصر التي تؤيد ذلك وشدوا أزرها". ^(٤)

ولعل الركود الفكري، والتخوف السياسي، كان ضحبيهما شيخ الإسلام، أبو الفتوح يحيى بن حبشن أميرك، الملقب بشهاب الدين "السهوروري المقتول" ^(٥) في قلعة حلب، عن سنتين وثلاثين سنة، بأمر من صلاح الدين، بعد أن ألح عليه فقهاء حلب ورفعوا إليه دعوى تطالب بقتله على أثر مناظرة دفعوه إليها، فاتهموه بالكفر والخروج على الشريعة، خصوصاً في موضوع النبوة، الذي يطلّ منه السهوروري على الإمامة، ويدعو من خلاله إلى التفريق بين النقل والعقل، بحججة أن القدرة المطلقة للإله يمكنها أن تبعث بنبي جديد، وإن كان هذا الإمكان لا يخرج بالقوة إلى الفعل. في حين أن علماء عصره كانوا يلتزمون حرفيّة النصوص. ويرى المستشرق "هورتن" أن هذا الموضوع أثار اضطراباً في الحياة السياسية، ما أخاف أهل السلطة من دعوة إلى ثورة تطيح بالحكام، وتأتي بالقائلين بالإمامية، خصوصاً وأن البعض يتحدث عن علاقة السهوروري بالنزارية التي كانت قيادتها العليا في قلعة "الموت"، وأنه كان من دعاتها،

وقد حذر البعض من نشر أفكاره ومقارعته الفقهاء. لكنه أصر على رؤاه "إيمانه العميق بضرورة الكشف عن المعرفة وإطلاع الناس عليها حتى يتبنوا الطريق القويم الموصى إلى الحقيقة يكاملها".^(١)

والرجل مولود في "سهرورد"، تلّمذ في العاشرة من عمره على الشيخ مجد الدين الجيلي المتأثر بالمشائية، ثم تركه ليطوف الآفاق طلباً للمعرفة، فالتقى الشيخ ظهير الدين القارئ، فتعلم على يديه، وانطلق وحيداً بين بلاد الروم وببلاد الشام، مبشراً بأفكاره العقلانية، مظهراً قدرة فائقة في المجادلة، خصوصاً بعد استفادته من أستاذه "فخر الدين الماردini" المتعمق بدراسة مصنفات "الشيخ الرئيس" فاكتسب عقلانية أوصلته إلى تأسيس مدرسة إشراقية في بلاط الأمير "عماد الدين قره إرسلان" في ديار بكر، مبدياً ميولاً إلى الموسيقى واحتقاراً لكل مظاهر السلطان أو الأبهة الدينية⁽⁷⁾ غير مبال بكسائه، وغير مكترث بالعادات والتقاليد الاجتماعية السائدة، ما جعل بعض أصدقائه يhzرونـه من ذلك أو يتبنـون بقتله.

صاحب مدرسة صوفية إشراقية، عاصر كبار العرفانيين أمثال "ابن عربي" و"ابن الفارض"، و"سعد الدين الحموي"، وغيرهم. عُرف بالزهد والتقوى والاعتدال؛ وصفه "ابن عربي" بالعبد الصالح. عُرف بمرجعيته بين معاصريه، تفجرت ينابيع الحق من داخله، فأنسد إلى المطلق وتشوق إلى الاتصال به، لكنه مع ذلك غير مهم بمsequabibl الأمور، لا بل يتنبأ بمorte كغيره من كبار رجال الفكر، فيقول في قصيدة "حنين":^(٨)

أبداً تحن إلى ياك م الأرواح
ووصالكم ريحانه سالراوح
وقلوب أهل ودادكم تشتفا قكم
إلى لذى ذلة سائكم ترتاح
واحدة متالعاشرة قبة تكفلها

خـضـنـجـكـمـعـكـمـلـيـسـعـلـيـكـمـ

لاصب في خفف ض الجناح جناح
فإلى لقاكم نفسكم مشتاقه
ولى رضاكم طرفه طماح
عودوا بنور الوصول في غرسق الجفا

وبحموته^(٩)، تكون قد أطفيت إحدى الشعل الإشراقية المهمة في التاريخ الإسلامي. وكادت أن تمحي مؤلفاته، لو لا الجهود المضنية التي بذلها تلميذه "الشهرزوري"، كما أكد ذلك "ابن خلكان" وغيره من كبار معاصريه.

على العموم، فمؤلفاته قاربت التسعة وأربعين. منها ما كتب بالفارسية (بستان القلوب، صفير سيرغ، لغات موران، رسالة روري، المبدأ والمعاد، وأصوات أجنبة جبرائيل...)، ومنها ما كتب بالعربية والفارسية (هياكل النور، الألواح العمادية...)، والباقي منها بالعربية، وقد فقد بعضها ونشر البعض الآخر، فيما بقي قسم منها مخطوطاً (رسالة الأسئلة والأجوبة..).

يعتبر السهروردي فيلسوف الإشراقية وأستاذها في الحياة العقلية عند المسلمين. وحكمة الإشراق ليست سوى التجلي، وهي مذهب للفكر وطريقة للسلوك، و”مذهب وسط بين التصوف وأدواته والفلسفة ونظرياتها“^(١٠) وقد استوعب الحكم القديمة من فارسية، ويونانية، وهندية، فدخل في عمق الأفلاطونية المحدثة، وقد تناولها بالرمز والمجاز، فرمز ”إلى المعنى الروحاني بالمنير، وإلى المادي بالظلم، وإلى العقل بالنور، وإلى النفس الإنسانية بالأنواد المحردة، وإلى الله بنور الأنوار .. وهكذا..“^(١١).

وإذا كان من المستحيل، أن نحيط من خلال دراسة موجزة بجميع مؤلفاته، فإننا سنقتصر بحثنا هذا على موضوع (العمل والعجب) من "رسالة الأسئلة والأجوبة" ،^(١٢) الذي تضمنه السؤال الثاني من الرسالة وجواب الشيخ عليه، نظراً لخطورة هذا الموضوع وأهميته في تربية النفس، وتخليصها من الشوائب المظلمة، على طريقة الإشراقيين من جهة، وما يتطلبه من سلوك، وما يؤدي إليه من نتائج في إطار السمو الإنساني، من جهة ثانية.

والرسالة، بأسئلتها الثمانية عشر مع أجوبتها، توجد نسخة منها في "المكتبة الظاهرية" بدمشق، وأخرى في "مكتبة مجلس الشورى الإسلامي" في الجمهورية الإسلامية الإيرانية؛ لكن نسخة دمشق تمتاز بالدقّة والكمال^(١٢)، أكثر من زميلتها

الموجودة في "مكتبة مجلس الشورى الإسلامي"، لذلك اعتمدت مرجعاً أساسياً لأكثر الدراسات، من دون إهمال النسخة الأخرى التي اعتمدت للمقارنة والتصويب .. وهي تشمل على ثمانية عشر سؤالاً مع أجوبتها، وقد جاءت بدون أي تصنيف موضوعي أو ترتيب، وتطرقـت إلى قضايا مختلفة ... وهي تتضمن المشاكل والأسئلة التي كانت تواجه المريدين في أعمالهم وسلوكيـهم، فضلاً عن أجوبة على الشبهـات والاعتراضـات التي كان يثيرها الآخرون أمام المتصوفـين في القرن الثاني عشر".^(١٤)

^(١٤) والاعتراضات التي كان يثيرها الآخرون أمام المتصوفين في القرن الثاني عشر.

ونورد منها السؤال الثاني مع جوابه^(١٥)، كموضوع للبحث الذي نحن في صدده:

- السؤال: مع العمل يتداخله العجب، ومع ترك العمل يخلد إلى البطالة.

- **الجواب:** لا يترك الأعمال ويداوي بأن يعمل، أن ظهوره من النفس، وكلما ألم بباطنه خاطر العجب يستغفر الله ويكره الخاطر، فإنه يصير ذلك كفارة خاطر العجب. ولا يدع العمل رأساً.

والعجب حسب ما ذكره العلماء، هو "تعظيم العمل الصالح واستكثاره والسرور والابتهاج به، والتغنج والدلال بواسطته، واعتبار الإنسان نفسه غير مقصّر"؛ وهو غير السرور بالعمل مع التواضع والخضوع لله تعالى وشكّره على التوفيق وطلب المزيد منه الذي "هو أمرٌ ممدوح" ،^{١٦} وهو أيضاً غير الابتهاج الذي يحصل للنفس من اليقين بصحّة أداء العمل مع الإقرار بنعمة الله^{١٧} والخوف من نقصانها أو زوالها.

فهو مرتبط بالاكتفاء بالحدود، والاعتقاد بعدم التقصير وبمانة على الله سبحانه.^(١٨) من شأنه "حب النفس" وإساءة الظن في الخلق، واستعظام الأعمال الصغيرة؛ وله درجات ومراتب في الخصال الحسنة وفي الفساد أيضاً^(١٩) والابتلاء بالمعصية أهون من الابتلاء به، وهو من المهلكات كما يعتبره الرسول الأكرم ﷺ؛ إذ إن من مفاسده "استصغر المعاصي"، ودفع الإنسان إلى التكبر والرياء والاستهانة بقيمة أعمال الآخرين وجدواها، وإلزام الحق تعالى بإعطاء الأجر والثواب. وفي ذلك يقول الإمام الخميني رض: "رب العبد نفسه وبواسطة الآيات، أو الملائكة أو الأعمام، دائمًا

لله وأنه بذلك يكون مستحقاً للجواب، ويرى واجباً على الله أن يجعله عزيزاً في هذا العالم، ومن أصحاب المقامات في الآخرة... وإذا ما أصابه بلاء وصادفه ما لا يرغب، فإنه يتعرض على الله في قلبه، ويتعجب من أفعال الله العادل، حيث يبتلي المؤمن من الظاهر، ويرزق المنافق، ويغضب في باطنها على الله تبارك وتعالى وتقديراته، ولكنه يظهر الرضا بالظاهر، ويصب غضبه على ولی نعمته، ويظهر الرضا بالقضاء أمام الخلقة." (٢٠)

(٢٠) "الخلة".

وهذا ما يجعلنا نعتبر أن المعجبين، في فهمهم للعمل ونتائجـه، يقتربون من الروح البراغماتية (المفعوية) التي تعتبر "النجاح المادي الملموس دليلاً على صحة السبل المتّبعة" ،^(٢١) و"النظريات والمذاهب فروضاً للعمل تمتّن بما ينتج عنها في المواقف الفعلية في الحياة" ،^(٢٢) كما تعتبر أن مدى صدقية هذه المذاهب والنظريات "يرتبط بمنفعتها وبدرجة القبول لها والرضا عنها".^(٢٣)

وإذا كانت البراغماتية قد جعلت وقوع المصدر النهائي للقيم في "نطاق الخبرة الحسية بالرغبة والارتياح الناشئ عن تحقيقها" ،^(٢٤) فإن العجب هو مظهر لهذه الروحية في العلاقة مع الله - وإن كان في جانب منها الانتظار لاجتلاف المنفعة في الآخرة - في حين أن الدنيا، في الإسلام، ليست "بدارٍ تبيّن نتائج الأعمال والملكات" :^(٢٥) «وما أصابك من حسنة فمن الله، وما أصابك من سيئة فمن نفسك»^(٢٦) بل هي "دار امتحان وتقرير بين الشقي والسعيد، والمطيع والعاصي":^(٢٧) «الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أياكم أحسن عملاً».^(٢٨) قوله سبحانه: «أياكم أحسن عملاً»، يربط نتيجة الامتحان بأحسن الأعمال ويفسر الأحسن بالأصوب، والأصوب بخشية الله والنية الصادقة، وهي الصور الباطنية للنفس والباعثة على التشخيصات الحقيقية للأرواح، أو أنها من مظاهر التشخيصات الغيبية الجوهرية للنفس. بل بناءً على تأثير القلب والباطن من الأعمال الظاهرة، يحصل التشخيص عبر الأعمال أيضاً، فامتحان الأعمال اختبار للذاتيات أيضاً.^(٢٩) فخير الأعمال ما كانت خالصة لله تعالى، لأنها في هذا الخلوص تؤشر إلى نقاه النفوس، وصدق المرايا، فتجعلها في جهوزية دائمة للتوحيد. و"التوحيد لا يقصد به ما انتشر عن إدراك الله بالوحدانية الذاتية والقيومية، وإنما يعني تجريد الكلمة (الصغرى، وهي النفس) عن علائق الأجسام في المكان، حتى ينطوي في الريوبنة القيومية كل نظر في مبادئ الوجود ومراتبه" ^(٣٠) فإذا ما استطاع الإنسان هذا التجريد، تصبح المشاهدة لديه في دائرة الإمكان - لأن شرطي حصولها: غياب الحجاب، ووجوب الاستعداد، يكون قد استكملا حضورهما عبر هذا التجريد - كما تصبح نفسه مستعدة لقبول الإشراق أيضاً.

والمشاهدة والإشراق، جوهر الإشراقية، عمليتان متعاكستا الاتجاه، تعاكس النزول والصعود، بين النفس ونور الأنوار. ففعل الإشراق يشبهه بإشعاع الشمس على الأرض، و فعل المشاهدة يشبهه بمشاهدة العين للمرئيات. والمشاهدة لا تكون بارتسام صورة المرئي في الشبكية، بل بحصول الإشراق الحضوري للنفس على المستنير، كما أن

الإشراق لا يكون بالانفصال الجرمي بل بالفيض؛ وذلك لا يمكن إثباته بالحجج العقلية، بل بالانسلاخ عن هياكل الأبدان، وقد رأى أفلاطون، ومن قبله سocrates، وهرمس، وأغاثاذيمون، وأنبازقليس هذا الرأي. وأكثراهم صرّح بأنه شاهد (الأنوار القاهرة) في عالم النور. وحکى أفلاطون عن نفسه أنه خلع الظلمات وشاهد (هذه الأنوار)، وحكماء الفرس والهند قاطبة على هذا. وإذا اعتبر رصد شخص أو شخصين في أمور فلكية، فكيف لا يعتبر قول أساطين الحكمة والنبوة على شيء شاهدوه في أبصارهم الروحانية.^(٣١) والسهروردي نفسه "كان شديد الذب عن طريقة المشائين في إنكار هذه الأشياء، عظيم الميل إليها، وكان مصرًا على ذلك لو لا أن رأى برهان ربه. ومن لم يصدق بهذا ولم يقنعه الحجة فعليه بالرياضات وخدمة أصحاب المشاهدة".^(٣٢)

وإذ توجه السهروردي بفلسفته هذه إلى الخاصة من حكماء ومشايخ ومتصوفة، فإنه ابتغي توسط هؤلاء في نقلها إلى العامة، بالمجاهدة والسلوك. وفي حياته الشخصية ما يقرن القول بالفعل، والرؤية بالحركة، والسلوك بالهدف، من ظهور له بثياب مهلهلة، إلى احتقارٍ منه لمظاهر الأبهة؛ إلى ما في أجوبته على أسئلة علماء خراسان من معاملة صارمة للنفس، ما يترجم عمليًّا نواحي إشراقيته، علمًا أن ظاهر هذه الترجمة يطال العامة، وباطنها لا يقوى عليه غير التقاة والأصفباء؛ لأنَّه يطال خفايا النفس الإنسانية بكل ما يدور فيها من تجاذبات بين مفاعيل الظلمة والنور، ويرصد الجدلية الحادة في الحركة بين قطبي السمو والسقوط؛ ولأنَّه، بمعنى أشمل، ينظر في الجانب الخفي من عالم الإنسان، وينظرُ له، ويعمل على انتظامه، بعيدًا عن المظاهر الواضحة للعيان. ولعل النص الذي نعالجه، بسؤاله وجوابه، يضعنا في عمق ما سعت إليه رؤية السهروردي من تهذيب وترويض للإنسان، لمسح نقاط الصدا عن صفحة النفس وإعادتها إلى براعتها الأولى، لتكون قادرة على استقطاب النور، وجاهزة للمشاهدة.

وفي السؤال جانباً: ظاهر وخفي، يتداخلان في الشق الأول: "مع العمل يتداخله العجب"، ويفترقان في الشق الثاني: "ومع ترك العمل يخلد إلى البطالة"، فيغيب الخفي ويسود الظاهر. وإذا عرفنا أن موضوع السؤال لا يخص الإنسان/ العامة، بل الإنسان/ الخاصة، يصبح بإمكاننا أن نرصد حصول حركة الانحدار في دخول العجب إلى النفس، لتبلغ ذروتها في البطالة، وبالتالي نرصد حضوراً للإنسان/ العامة يتشكل طردياً بحضور العجب، ليصل إلى الغياب، طردياً أيضاً، بغياب العمل. إذ إن البطالة

تساوي السكون، مجازاً، والسكون يساوي الموت والغياب.

إنها إشكالية الحركة بين الظاهر والباطن، وإشكالية السكون المضاد على مستوى الظاهر والباطن معاً؛ وبالتالي، هي إشكالية الوجود الإنساني بين النفعية والتآله. وفي الحالين تبقى التربية (تربيـة النفس) العامل الأساس، من بين جميع العوامل، التي تحدد المسار الإنساني بكل من الفلسفتين، الآنفتي الذكر.

في الجواب، يجوز السهور وردي بالإنسان من العامة إلى الخاصة، ومن الجزء إلى الكل، ومن الدنو إلى التآله. وهو في جوابه هذا يبدو متمنكاً من أدق التفاصيل، عارفاً بخفايا النفس الإنسانية، ملأها فلسفياً، عالم نفس رفيعاً، إذ يدفع بالإنسان/الخاصة للتخلص من العجب بالاستغفار وإكراء الخاطر، ليصبح مؤهلاً للسعـي إلى التآله. ما يعني تشكل حركة الصعود في النقطة الأخيرة من محصلة الانحدار/ الغياب. وتوجهـها عكسيـاً حتى الحضور في النقطة الأولى من تشكل الإنسان/ المتأله.

وفي عودة إلى نص الجواب نلاحظ التلازم بين الاستغفار وإكراء الخاطر، مقابل التلازم القائم بين العجب والعمل، عبر معادلة علاجية تستند إلى التواصل بين التلازمين؛ فقوله: "يداوي بأن يعمل"، يعني أن المرض ناتج عن العجب وليس عن العمل نفسه. والعجب أو الزهو^(٢٢) محـصلـ من نشـاطـاتـ النفسـ الإنسـانـيةـ،ـ وـظـهـورـهـ "ـمـنـنفسـهـ"ـ،ـ وـخـطـورـتـهـ فيـ أـنـ يـفـسـدـ عـلـىـ هـذـهـ النـفـسـ صـفـاءـهـاـ،ـ فـيـعـزـلـهـاـ عـنـ التـفـاعـلـ معـ الأـنـوارـ،ـ وـيـبعـدـهـاـ عـنـ إـمـكـانـيـةـ التـواـصـلـ وـالـمـاـشـاهـدـةـ.ـ وـالـشـفـاءـ يـكـونـ بـعـزـلـ العـجـبـ عـنـ الـعـمـلـ،ـ وـإـخـرـاجـهـ مـنـ النـفـسـ.ـ أـمـاـ العـلـاجـ فـيـكـونـ بـتـلـازـمـ الـاسـتـغـفارـ وـإـكـرـاءـ الخـاطـرـ.ـ وـالـاسـتـغـفارـ:ـ "ـدـرـجـةـ الـعـلـيـينـ وـهـوـ اـسـمـ وـاقـعـ عـلـىـ سـتـةـ معـانـ:ـ أـوـلـهـاـ النـدـمـ عـلـىـ مـاـ مـضـىـ،ـ وـثـانـيـ العـزـمـ عـلـىـ تـرـكـ العـوـدـ إـلـيـهـ أـبـداـ،ـ وـثـالـثـ أـنـ تـؤـديـ إـلـىـ الـمـلـوـقـهـنـ حـقـوقـهـ حـتـىـ تـلـقـيـ اللـهـ أـمـلـسـ لـيـسـ عـلـيـكـ تـبـعـةـ،ـ وـرـابـعـ أـنـ تـعـمـدـ إـلـىـ كـلـ فـرـيـضـةـ عـلـيـكـ ضـيـعـتـهـاـ فـتـؤـديـ خـقـهاـ:ـ وـالـخـامـسـ أـنـ تـعـمـدـ إـلـىـ الـلـحـمـ الـذـيـ نـبـتـ عـلـىـ السـحـتـ:ـ فـتـذـيـهـ بـالـأـحـزـانـ"ـ

حتـىـ تـلـصـقـ الجـلدـ بـالـعـظـمـ وـيـنـشـأـ بـيـنـهـماـ لـحـمـ جـديـدـ،ـ وـالـسـادـسـ أـنـ تـذـيقـ الجـسـمـ الـأـلـمـ الطـاعـةـ كـمـ أـذـقـتـهـ حـلـاوـةـ الـمـعـصـيـةـ...ـ"ـ^(٢٤)ـ وـهـوـ،ـ فـيـ مـعـانـيـهـ هـذـهـ،ـ رـياـضـةـ روـحـيـةـ - جـسـدـيـةـ مـعـقـدـةـ وـصـعـبـةـ،ـ تـتـعـدـىـ الـلـفـظـ إـلـىـ الـمـارـسـةـ،ـ وـالـنـيـةـ إـلـىـ السـلـوكـ،ـ لـمـحـوـ الـأـثارـ الـجـسـمـيـةـ وـالـرـوـحـيـةـ الـتـيـ تـحـصـلـ فـيـ مـلـكـةـ الـجـسـمـ وـالـنـفـسـ مـنـ جـرـاءـ الـذـنـوبـ،ـ حـتـىـ تـعـوـدـ النـفـسـ مـصـقـولـةـ كـمـ كـانـتـ فـيـ بـادـئـ الـأـمـرـ،ـ وـتـعـوـدـ الـفـطـرـةـ إـلـىـ رـوـحـانـيـتـهـ الـأـصـلـيـةـ،ـ وـتـحـصـلـ الـطـهـارـةـ الـكـامـلـةـ^(٢٥)ـ؛ـ فـالـصـورـ الـمـلـكـوتـيـةـ لـلـأـعـمـالـ بـمـثـابـةـ وـلـيـدـ الـإـنـسـانـ،ـ وـالـتـوـبـةـ

والاستغفار بمثابة اللعان ونفي الولد؛ والحق، تبارك وتعالى، بسبب غفاريته وستاريته يقطع الصلة بين وليد الإنسان (الصور الملكية للأعمال المحرمة) والإنسان بواسطة لعان المستغفر (٢٦).

والأية الكريمة: «واستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيمًا» (٢٧) تؤكد ذلك، علمًاً أن العفو والمغفرة يستعملان في كلامه تعالى في شؤون مختلفة، يجمعها جامع الذنب، وهو التباعد عن الحق بوجهه؛ وأن “أمره للنبي بأن يستغفر، ليس لصدور ذنب ذي بال وتبعة منه، ولا لإشرافه على ما لا يحمد منه، بل ليسأل من الله أن يظهره على هوى النفس...” (٢٨).

فإذا ما قرن الاستغفار بإكراه الخاطر وتحمّل المشقة، حصلت الكفارة، وسترّت العيوب، وتقطّعت الندوب، وعادت النفس إلى صفائها وجهوزيتها لتلقي الأنوار، أو للدخول في المشاهدة. وفي ذلك افتتاح للذات على الحضور، وانتصار لها على التشتت، وخروج بها إلى مواطن الانبعاث، وإحساس عميق بكرامة الإنسان وقداسته.

وإذا كانت مؤلفات السهروري مفرقة في النظرية والفلسفة، فإن أهمية هذه “الأسئلة والأجوبة” تكمن في ما تمثله من لتلك الفلسفة التي أدرك واضعها صعوبة فهمها، والتعاطي بها، فأوصى بإبعادها عن العامة، وحفظ كتابها “الاحتياط فيه، وصونه من غير أهله” (٢٩) وعدم منحه “إلا أهله من استحکم طبقة المشائين” (٤٠) وارتاض قبل الشروع “أربعين يوماً تاركاً للحوم الحيوانات، مقللاً، منقطعاً إلى التأمل لنور الله...” (٤١)

ولعلمنا أن السائلين من العلماء هم في موضع الواسطة بينه وبين العامة، وأن هدف فلسفته ارتقاء النفوس إلى التأله، حتى “تطيعها مادة العالم، ويسمع دعاؤها في العالم الأعلى...” لأن ”النفوس المجردة يتقرر فيها مثال من نور الله، ويتمكن فيها نور خلاق“، (٤٢) ندرك ما في هذه الرسائل من قدرة عالية ليس على تبيان كيفية ”تحويل الأفكار الفلسفية إلى سلوك نزاه ونلمسه؛ ونتعامل معه في حركة الحياة الإنسانية“ (٤٣) في واقع الحياة، وحسب، بل على ما فيها من معطيات متوجهة في التربية الإنسانية المعاصرة، يبدو عالم اليوم بأمس الحاجة إليها.

كلمةأخيرة:

إذا كانت التربية، بمعناها الأشمل، تقوم على النمو والإعلاء، النمو كإطار مادي ملموس يتمظاهر فيه الإعلاء؛ أي مجموعة القيم والمبادئ، فإن هدفها هو تحقيق الإنسان المنشود، ومنهجها هو الطريق التي تسلك للوصول إلى ذلك التحقيق، وما

يفرضه من تغييرات في السلوك تخضع لجدلية التبادل والتلازم بين النمو والإعلاء، وليس إلى اكتساب المعرفة وتخزينها وحسب.

وإذا كانت التربية، والتربيـة الحديثة تحديداً، تطال كل هذه الأمور فإن السهروردي الذي ابتكـى من إشراقيته، تحقيق الإنسان المتأله، القائم على التوحيد، "الإنسان المنشود"، منذ ما يزيد على ثمانية قرون، قد أدرك أساس هذه التربية، ومنهجها، كما أدرك معنى بلوغ هذه الغاية، ومظاهرها، وذلك بقوله في "رسالة صفير سيمرغ": "فطالما كان الناس مقتصرـين على المعرفـة، بقوا بعيدـين عن الهدف، وهذه الحال تعدّ من الشرك المقنـع. كلا إن الإنسان لا يبلغ الكمال إلا في اللحظـة التي يفني فيها معرفـته في العـارف، لأنـ الذي يرضـى بمعرفـته رضـاه بالـعارف الذي يـعرفـه، لا يزال في حال من اتجـه قصـده إلى المعرفـة نفسها" ،^(٤٤) ذلك أنـ السهروردي يـريد أنـ تحـول المعرفـة في الإنسان إلى سـلوك كاملـ تـفيض عنه الحـركة فيـض النـور عنـ المنـير.

وإذ نعتقد أنـ التجـديد يعني امتـلاك روح العـصر من غيرـ أنـ نخلـع الجـذور من روـحـية ما جاءـت به التجـارب الإنسـانية من ثوابـت لـتكـريم الإنسان والـسمـوـ به، فإنـنا نـرى فيما بـحثـنا فيهـ، من سـؤـال وجـواب دعـوة لـلـإنسـانـ / الفـرد تـجـوز روـحـيتهاـ الـقـرـونـ الـماـضـيةـ إـلـىـ عـصـرـنـاـ، عـصـرـ العـولـمةـ، لإـعادـةـ الـاعـتـبارـ إـلـىـ قـدـسـيـةـ الإـنـسـانـ بـتـخلـيصـهـ من آلـيـةـ القـطـيعـ، وـتفـعـيلـ دورـهـ فيـ إطارـ الجـمـاعـةـ، عنـ طـرـيقـ تـنـمـيـةـ شـعـورـهـ بـحـضـورـ الذـاتـ وـمـسـؤـوليـتهاـ فيـ آـنـ وـاحـدـ، وـذـلـكـ أـمـرـ مـغـايـرـ تـامـاـ لـماـ قـدـ يـتـبـادرـ إـلـىـ ذـهـنـ الـبعـضـ منـ أـنـناـ نـدـعـوـ إـلـىـ تـأـصـيلـ روـحـ الـفـردـيـةـ فيـ مجـتمـعـاتـاـ الـمـشـرقـيـةـ، الـقـائـمـةـ أـصـلـاـ عـلـىـ تـسـلـطـ الـفـردـ وـتـغـيـيبـ الـجـمـاعـةـ، الـأـمـرـيـنـ الـلـذـيـنـ سـهـلاـ سـيـادـةـ النـواـحـيـ السـلـبـيـةـ مـنـ الـعـولـمةـ فيـ مجـتمـعـاتـاـ، مـنـ غـيرـ أـنـ يـكـونـ لـدـيـنـاـ الـقـدرـةـ عـلـىـ الإـفـادـةـ مـنـ النـواـحـيـ الإـيجـابـيـةـ أوـ الـمسـاـهـمـةـ فـيـ إـدارـتهاـ .

حاشية:

- (١) - المعروف بـ "الحلاج" ت ٩٢٢ م، هـ ٦٠٩.
- (٢) - وزير الخليفة العباسي "المقدار بالله".
- (٣) - "من أفضى السر هلك" .. "من تكلم خرج".
- (٤) - الدكتور نقولا زيادة، ملحق النهار، ٥ أيار ١٩٩٤.
- (٥) - تميّزاً له عن "أبي النجيب عبد القادر بن عبد الله بن محمد بن عمّویة الملقب ضياء الدين السهروردي المتوفى بيغداد سنة ٥٦٣ هـ، وعن "أبي حفص عمرو بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عمّویة" الملقب بالسهروردي المتوفى سنة ٦٢٢ هـ.
- (٦) - الدكتور مصطفى غالب، السهروردي، بيروت، مؤسسة عز الدين، ١٩٨٢، ص ٢٢.
- (٧) - عبد الرحمن بدوي، شخصيات قلقة في الإسلام، الكويت، وكالة المطبوعات، ط ٢، ١٩٧٨، ص ٩٩.
- (٨) - السهروردي المقتول، إعداد وتحقيق يوسف إيش، بيروت، دار الحمراء، ط ١، ١٩٩٠، ص ٧٧.
- (٩) - في "عيون الأنبياء في طبقات الأطباء"، ابن أبي أصيبيعة، الجزء الثاني، المطبعة الوهابية، ط ١، القاهرة، ١٨٨٢ م، ص ٢٧١ - ١٦٨. يقول ابن أبي أصيبيعة: "حدثنا الشيخ سعيد الدين محمود بن عمر قال: كان شهاب الدين السهروردي قد توجه إلى الشام ومن بعدها إلى حلب، ونظر بها الفقهاء. ولم يجاريه أحد فكثر تشنيعهم عليه فاستحضره السلطان الملك الظاهر غازى بن الملك الناصر صلاح الدين واستحضر الأكابر من المدرسين والفقهاء والمتكلمين ليسمع ما يجري بينهم وبينه من المباحث والكلام، فتكلم معهم بكلام كثير، وبان له فضل عظيم وعلم باهر وحسن موقعه عند الملك الظاهر، وقرره وصار مكيناً عنه مختصباً به، فازداد تشنيع أولئك عليه وعملوا محاضر بكفره وسيروها إلى دمشق إلى الملك الناصر صلاح الدين، وقالوا: إن يقي هذا فإنه يفسد اعتقاد الملك الظاهر، وكذلك إن أطلق فإنه يفسد أي ناحية كان بها من البلاد، وزاد عليه أشياء كثيرة من ذلك، فبعث صلاح الدين إلى ولده الملك الظاهر بحلب كتاباً في حقه، بخط القاضي الفاضل ولا يبقى بوجه من الوجوه ولما بلغ الفاضل، وهو يقول فيه: إن هذا الشهاب السهروردي لا بد من قتله ولا سبيل أن يطلق، ولا يبقى بوجه من الوجوه، ولما بلغ شهاب الدين السهروردي وأيقن أنه يقتل، وليس جهة إلى الإفراج عنه، اختار أن يترك في مكان مفرد ويُمنع منه الطعام والشراب إلى أن يلقى الله تعالى، ففعل به ذلك وكان في أواخر سنة ست وثمانين وخمسين للهجرة بحلب وكان عمره نحو ست وتلائين سنة". وفي رواية أخرى يضيف ابن أبي أصيبيعة ١٦٩/٢: أن الملك الظاهر بن صلاح الدين - بعد مدة نقم على الذين أفتووا في دمه، وقبض على جماعة منهم واعتقلهم وأهانهم، وأخذ منهم أموالاً عظيمة... مقتبسة من رسالة بعثها "خير الله سعيد" من بكين إلى الأستاذ "هادي العلوي". أوردناها تماماً كما تضمنتها الصفحة ٢٨ من مجلة "الحرية" الصادرة في بيروت في ١٩٩٣/١/٣. حيث يذكر "خير الله سعيد" أنه أوردها دون تدخل في مجال أخطائها اللغوية والمطبعية غير المقصودة.
- على ضوء ما سبق، نورد الأسئلة التالية:

- هل أنس السهروردي، في أعماقه، أهليته للإمامية؟ فسعى إليها؟ وإلى أية إمامية سعى؟ إلى الإمامة ببعدها التاريخي، أم إلى الإمامة ببعدها العقائدي؟ هل أن فقهاء حلب خافوا نجاح مشروعه هذا، فسيروا المحاضر، ليقطعوا عليه مدّ العون من الملك الظاهر؟ أم أنهم خافوا أن يتخد الملك الظاهر من آراء السهروردي وسلوكه مقاييساً لصدقية الفقهاء فيحررهم من كثير من الامتيازات؟
- أسئلة قد تبقى دون إجابات، ولكنها قد تلقي الضوء على جوانب كثيرة من التاريخ العربي والإسلامي.
- (١٠) - قمر الكيلاني، في التصوف الإسلامي، ص ١٣٦.

- (١١) - السهروردي، م.س. ص ١٢٧.
- (١٢) - أحمد طاهر عراقي، مجلة الثقافة الإسلامية، العدد السابع والأربعون، كانون الثاني، شباط ١٩٩٣.
- (١٣) - متحفظة برقم ٤٦٥٣.
- (١٤) - مجلة الثقافة الإسلامية، م.س. ص ١٨٢.
- (١٥) - م.ن. ص ١٨٤.
- (١٦) - الإمام الخميني رض، الأربعون حديثاً، تعریب محمد الغروی، بيروت، دار التعارف للمطبوعات، الطبعة الرابعة، ١٩٩٢م، ص ٨٣.
- (١٧) - «ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك». (سورة النساء، آية ٨٩).
- (١٨) - أنظر: بحار الأنوار، المجلد ٧٢، ص ٣٠٦.
- (١٩) - للمزيد من الاطلاع، راجع: الأربعون حديثاً، م.س. ص ٨٤-٨٥-٨٦-٨٧.
- (٢٠) - الأربعون حديثاً، م.س. ص ٨٦.
- (٢١) - د. سعيد إسماعيل علي، فلسفات تربوية معاصرة، عالم المعرفة، الكويت، العدد ١٩٨، ص ٤٩.
- (٢٢) - م.ن. ص ٥٣.
- (٢٣) - م.ن. ص ٧٠.
- (٢٤) - م.ن. ص ٩٥.
- (٢٥) - الأربعون حديثاً، م.س. ص ٢٨٢.
- (٢٦) - سورة النساء: آية ٧٩.
- (٢٧) - الأربعون حديثاً، م.س. ص ٢٨٢.
- (٢٨) - سورة تبارك: آية ٢.
- (٢٩) - الأربعون حديثاً، م.س. ص ٣٥٧.
- (٣٠) - شخصيات قلقة في الإسلام، م.س. ص ١١٩.
- (٣١) - السهروردي المقتول، م.س. ص ١٠٤.
- (٣٢) - م.ن. ص ٢٦.
- (٣٣) - لسان العرب، مادة عجب.
- (٣٤) - الإمام علي بن أبي طالب (ع)، نهج البلاغة، شرح الإمام محمد عبده، بيروت، مؤسسة المعارف، لا تاريخ، ص ٧٧٤-٧٧٥.
- (٣٥) - الأربعون حديثاً، م.س. ص ٢١٢.
- (٣٦) - م.ن. ص ٣١٥.
- (٣٧) - سورة النساء: آية ١٠٦.
- (٣٨) - السيد محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، المجلد الخامس، بيروت، مؤسسة الأعلمى للمطبوعات، الطبعة الخامسة، ١٩٨٣، ص ٧٢.
- (٣٩) - السهروردي المقتول، م.س. ص ١٣٤.
- (٤٠) - م.ن. ص ١٣٤.
- (٤١) - م.ن. ص ١٣٤.
- (٤٢) - م.ن. ص ١٣٢-١٣٣.
- (٤٣) - فلسفات تربوية معاصرة، م.س. ص ١٠.
- (٤٤) - شخصيات قلقة في الإسلام، م.س. ص ١٢١.